تفنيد شبهة
الحاجة لتصوير ذوات الأرواح
لنشر العلم

مستل من كتاب :

بزوغ ضياء الفجر الوضاء على سحر مسألة التصوير بالأضواء

لمؤلفه:

عبد الرحمن بن مِيهُوب القَدّارِي

وتجد — إن شاء الله — أحدث نسخة من الكتاب الكامل وملخصه من خلال هذا الرابط:

https://arm-alqaddari.codeberg.page

الباب الرابع: تفنيد شبهة التصوير لنشر العلم

ولنا جوابان على هذه الشبهة، أحدها مختصر، والثاني مطول.

أما المختصر:

فإن التصوير الضوئي من كبائر الذنوب إن خلا من نية المضاهاة. فإن كان ذلك كذلك، فكيف تستجيزون ارتكابها للدعوة إلى الله؟ وما الفرق بينكم وبين من يستجيز معصية الله في سبيل الدعوة؟ وبين من يقول "الغاية تبرر الوسيلة"؟

هذا إن كان في التصوير نفع، فكيف وهو لا نفع فيه، إذ نقل العلم عبر القرون صوتا وكتابة.

وإن كان هذا النفع المزعوم هو إيصال الدعوة للعوام الذين انتشر بينهم التصوير، فسبحان الله، ما هذا إلا زيادة الطين بلة لكل عاقل.

بدل إصلاح الخطأ الفاحش في تحليل كبيرة من الكبائر، استسلمنا للواقع. والله المستعان.

الحاصل أنه لا مبرر لارتكاب كبيرة من الكبائر في غير ما ضرورة.

وقياس البعض لتصوير المحاضرات على صورة التابعية والجواز قياس باطل نتعجب ممن يحتج به، وبطلانه ظاهر. فصور التابعية مفروضة من قبل الحكومات، أما نشر العلم فحاصل دون أن يجبرنا أحد على التصوير، وبركته أعظم.

وأما المطول:

مقدمة

من محدثات هذا العصر، تمييع تصوير ذوات الأرواح، من أهل الحق والباطل، لأسباب مختلفة بالطبع.

قد يُعْذَر من لم يعش ليرى التصوير الضوئي الرقمي وشيوعه، وقد يعذر من لم يتوفر له من يشرح له حقيقة التصوير الضوئي.

أما الآن، وقد تفجّرت المعلومات، وأصبحت تحت متناول اليد بمجرد ضغطات، وبشتى الأنواع والصيغ، واعتاد الناس التصوير الضوئي وزيادة وضوحه وآليته، فمن الصعب أن يُعْذَرَ من لا يزال متمسكًا بالتفسير الشاذ عن تفسير **العالم كله** للتصوير الضوئي، فيقول «حبس للظل».

وفي ما يلي بعض شبهاتهم حول التصوير لنشر العلم، ارتأيت أن أفردها، على الرغم من أن أصل هاته الشبهة بسيط، وهو فرعان، حَسْبَ قائلها:

1. ذوي القصد الحسن: نشر العلم يبرر ارتكاب كبيرة من الكبائر، لأنه واجب ومصلحة.

2. متبعي الهوى: العامة تحب التصوير والصور، فنستعمله لجذبهم.

أما أصحاب الهوى فحالهم معلوم، ولذلك كلامنا الآتي عن ذوي القصد الحسن، فنقول:

شاءوا أم أبوا، التصوير كبيرة من الكبائر، لا مخصص لحرمته البتة كما بيّنّا. ونحن الآن نخاطبك أيها القارئ بعد أن تكون قرأت تفصيلنا – إن شاء الله تعالى –، وإلا فارجع واقرأه أولا، وإلا ما أنصفتني.

ثم هب لك أنه ليس كبيرة من الكبائر، فواقعنا اليوم يشهد على خطورة التساهل بالتصوير من دون ضرورة، كما سنبين إن شاء الله تعالى. وكل من له أدنى تضلع في شبكة المعلومات وشيء من تقوى الله يعلم ويدرك ما الذي يفعله الناس بالصور.

وهذا وحده كاف للزجر عن هذا، فكيف إذا بيّنّا أن التصوير لنشر العلم من البدع التي قال عنها رسول – الله صلى الله عليه وسلم –:

1. «من أحدَثَ في أَمْرِنا هذا ما لَيسَ منه، فهو رَدٌّ»[1].

- 1- صحيح البخاري، رقم 2697.

2. «أَمَّا بَعدُ، فإنَّ خَيرَ الحَديثِ كِتَابُ اللّهِ، وخَيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وشَرَّ الأمورِ مُحدَثاتُها، وكُلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ»[1].

فمن علامات البدعة:

1. لا دليل على مشروعيتها.

2. الاستدلال على مشروعيتها بدليل عام وعدم الالتفات لما يخصصه.

3. قصد التعبد بها.

4. انعدام وجود أصل لها.

5. استحسان أصحابها لها.

وكل هذا متحقق في التصوير لنشر العلم، إذ:

1. لا دليل على مشروعيته، بل هناك أدلة على حرمته.

2. يستدل له أصحابه بنصوص عامة في الدعوة إلى دين الله تعالى.

3. يرون فيه زيادة نفع، أي زيادة أجر.

- 1- صحيح مسلم، رقم 867.

4. لا أصل له، بل كان التصوير يُنكر، إذ لا أحد من السلف الصالح ارتأى التصوير لنشر الإسلام مع قدرتهم على ذلك، كما سنبين – إن شاء الله تعالى –.

5. استحسان أصحاب التصوير له والتفنن فيه، حتى إن بعضهم قد يدعي وجوبه – والعياذ بالله –.

إذن، التصوير لنشر العلم بدعة، وهي أشبه بصلاة المشركين عند البيت وتَشَبُّهٌ بالكفار الذين يصورون كبارهم.

أما أصحاب الهوى فسبب وقوعهم في هاته البدعة بَيِّن، أما المخطئون فلأنه التبس عليهم أمر التصوير الضوئي وقصّروا في دراسة ماهيته وتكلموا فيه عن غير علم، نسأل الله أن يهدينا ويهديهم، ويغفر لنا ويغفر لهم.

1. شبهة التوثيق

عندما يرى الطلاب صور الشيخ يتأكدون أنه هو صاحب الكلام والدرس. فالتصوير يفيد التوثيق.

الجواب:

العلم الذي تنشرون وتدرسون، من أين أتاكم؟ من الذين قبلكم طبعًا، والذين من قبلهم، حتى نصل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

كم نسبة الذين لديكم صورة تعرفونهم بها؟

ضئيلة جدا، لا تتعدى كبار العلماء المعاصرين، الذين سُرِقَت صورهم ونُشِرت دون رضاهم.

لا صورة لنبينا – عليه الصلاة والسلام –، ولا لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وكل الصحابة والتابعين وعلماء السلف والخلف.

من منكم لديه صورة لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد؟ من منكم لديه صورة للبخاري أو مسلم أو أبي داود أو الترمذي؟

ليس لدينا إلا ما كتبوا وما كُتب عنهم.

فهل لزمت معرفة صورهم لنتأكد أنهم أصحاب هاته الأقوال؟ لا والله.

خذ لك علم الحديث، علمٌ من أُسُسه التوثيق، ولا تصوير فيه للرواة والرجال. ولا عالم اعتمد على تصوير صورة الراوي وإلحاقها بترجمته، ولو تشابهت الأسماء والتبس الأمر.

والآن، لا تكاد تخلو تَرْجَمَة عالم من العلماء المعاصرين من صورة لهم، حتى ولو أخذت دون رضاهم، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

فإن قيل: «لو أنه توفرت لهم الوسائل المتاحة لنا الآن لسارعوا إلى ذلك»، قيل لهم:

هذا شغب شديد البطلان، وبرهاننا على ذلك:

1. وجود المصورين في ذاك الوقت وقدرتهم على تصوير الأشخاص، تصويرًا مسطحًا ومجسمًا.
2. الجهود التي بذلها المحدثون لجمع الحديث، ومنها السفر على الأقدام. ووجه استدلالنا من هذا أنهم أحرص منا على التوثيق، فأي وسيلة ليس لها أصل عملوا به فهو باطل.

شبهة التصوير لغرض التوثيق شبهة واهية تشبه قول اليهود لموسى — عليه السلام —: { لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً } [البقرة: 55].

الإمامين الألباني والوادعي انتشر علمهما وملأ الآفاق، ولولا تَسَرُّبُ صورهما دون رضاهما لما عرفنا لهما شكلا، فهل لكم في ذلك عبرة؟

الإمام ابن باز – رحمة الله عليه – قال أنه لن يسامح من ينشر صورته[1]، ومع ذلك لا يتقي الناس ربهم، فتجد العجب العجاب من تعديلات صور هؤلاء الأئمة. كيف بكم إذا قابلتموهم أمام الله، وهم خصومكم؟

هذا – والله – من علامات التهوين الخطير لمنكر التصوير، يتوعدك إمام من الأئمة، وتعلم أنه لن يرضى عمّا تفعله بصورته، ومع ذلك نتجرأ على ذلك. إلى الله المشتكى.

- 1- المصدر: [https://binbaz.org.sa/fatwas/4565/%D8%AD%D9%83%D9%85-%D8%B4%D8%B1%D8%A7%D8%A1-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AC%D9%84%D8%A7%D8%AA-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AD%D8%AA%D9%88%D9%8A%D8%A9-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%88%D8%B1]

لما سئل الإمام الألباني عن صورته المنشورة في إحدى الجرائد، قال: «هذا من جملة البلاء الذي نبتلى به في آخر الزمان»[1]، قال هذا عن صورة واحدة. فما الذي سيقوله لو علم بما جرى من بعد وفاته؟

ثم كيف بكم بفتنة الذكاء[2] الاصطناعي الذي مكّن من تزييف صورٍ ومرئياتٍ وبثوثٍ مباشرة؟

ها قد ضاع احتجاجكم وذهب أدراج الرياح، وعدتم إلى أساس التوثيق الذي عمل به سلفنا الصالح، ألا وهو تناقل الثقات.

فإن كان ذلك كذلك، ظهر لنا ولكم أنه لا متمسك بهاته الشبهة، فلتكتفوا بما اكتفى به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصحابته في مهمة أشرف وأصعب من مهمتنا.

- 1- المصدر:

[https://al-fatawa.com/fatwa/33546/%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%84%D8%A7%D9%85-%D8%B9%D9%84%D9%89-%D9%86%D8%B4%D8%B1-%D8%A7%D9%88%D9%84-%D8%B5%D9%88%D8%B1%D8%A9-%D9%84%D9%84%D8%B4%D9%8A%D8%AE-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D9%86%D9%8A].

- 2- وليس بذكاء حقيقي، بل مجرد برامج أكثر تعقيدا من المعتاد، أي أنه مجرد حساب جامد من دون فهم أو إدراك.

2. شبهة قوة التأثير والنفع

تصوير المحاضرات والدروس أنفع في جذب العامة، وفي هذا فائدة لهم، لعلهم يهتدون ويتعلمون دينهم، فرؤية الشيخ يحصل بها الاستئناس له والثقة فيه، لا سِيما إذا كان مستبشرًا وبشوشًا وذو هيئة حسنة.

الجواب:

لا فرق بين هذا و:

1. تلحين القرآن وإضافة الموسيقى لجذب الناس لسماع القرآن.
2. ظهور نساء متبرجات للدعوة إلى الكتاب والسنة.
3. حلق الشيوخ لحاهم ليكون شكلهم مألوفًا لدى العامة.

إلى غير ذلك من أساليب "الغاية تبرر الوسيلة".

ثم نقول:

أتصويركم أكثر نفعا وتأثيرًا من القرآن الكريم؟

أتصويركم أكثر نفعا وتأثيرًا من الأحاديث النبوية؟

أتصويركم أكثر نفعا وتأثيرًا من آثار الصحابة؟

أتصويركم أكثر نفعًا وتأثيرًا من كتب علم السلف الصالح؟

ما من مصدر مما سبق فيه صور، مجرد كتابة وتناقل بالشفاه عبر الأجيال.

فإن قيل: «نحن لا ندعي أن عملنا أكثر نفعا، بل فيه نفع ارتأينا عدم تفويته، ويقال لك أنك ترى تسجيل الصوت أكثر نفعا من مجرد المشافهة، والطباعة أكثر من الكتابة، وغير ذلك».

قلنا: بل ادعيتم ذلك، لأن التصوير زيادة عمل، فلزم اعتقادكم زيادة النفع، وإلا حكمتم على أنفسكم بالعبث.

ولكن نتنازل لكم ونقول:

عملكم أصله كبيرة من الكبائر، عملنا أصله دعا إليه الشرع.

أصل عملنا عُمِلَ في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – والصحابة، أصل عملكم لم يُعْمَل، بل كان ينكر.

فأصل الطباعة هو الكتابة اليدوية، وأصل تسجيل الصوت هو السماع والرواية – التسجيل البشري –. فقط اختلفت الوسائل.

النبي – صلى الله عليه وسلم – لم يضع صورة له في رسائله للملوك.

الصحابة لم يرتأوا أن يصوروا النبي – صلى الله عليه وسلم – ويبعثوا صورته إلى الروم والفرس ليستأنسوا به ويكون له أثرا أقوى عليهم.

الصحابة لم يرتأوا أن يصوروا الخلفاء في رسائلهم للملوك ليعرِّفُوهم أنفسهم.

صوتك أو كتابتك تكفي لتحقيق المقصود، كما تحقق للإمام الألباني، فسيرته خير دليل على بُطْلان الاحتجاج بزيادة النفع والتوثيق[1]، بل هذا التصوير مما أثر على هاته الأمة، ولو شَرَعْتُ في التفصيل في آثاره لطال الأمر، فأكتفي بهاته الإشارة لمن له أسوة حسنة في منهج السلف الصالح.

قد يدّعُون أن العامة لديها توجه أكبر نحو الدين وتعلمه بسبب تصويرهم، وهذه غفلة شديدة عن حال هؤلاء "المتجهين إلى الدين"، كم منهم سيبقى لو طمست كل الصور، وخرج جميع الشيوخ من مواقع الضلال، واكتفوا بالتأليف ونشر المقاطع الصوتية على مواقعهم؟

أتعرف لماذا الشركات التجارية تصرف الأموال الطائلة لصناعة صور لمنتجاتها وتمنيقها؟ لأن النظر إلى الصور من الشهوات الشديدة الفتنة، التي تسوغ لك الفاحشة حتى تنسلخ من دينك إن كان لك دين، فلا عبرة لما تستهلكه فكريا، لأن الصورة هي ما جذبت الـمُشاهد.

مَثَلُ هذا مثل رجل غني أغرى امرأة بأمواله لتتزوجه، ثم ظن أنه عثر على شريك حياته المخلص. ففقد أمواله، فهجرته "شريكة الحياة".

برهاننا على هذا:

- 1- لأنه معاصر ووجدت في زمنه وسائل التصوير الحديثة، ومع ذلك رفضها وأنكرها واكتفى بالكتابة والطباعة وتسجيل الصوت.

1. أعداد المشاهدات الهائلة في المقاطع المرئية مقارنة بالصوتية، حتى ولو كانت لنفس العالم.
2. الأعداد الضخمة للمشتركين في قنوات وحسابات المعتمدين على التصوير.
3. عدم شهرة الشيوخ الذين لا يرون التصوير، وندرة الكلام عنهم.
4. شهرة بعض طلاب العلم الصغار المعتمدين على التصوير أكثر من العلماء الربانيين.

ولا يجوز الاحتجاج بكون هذا الجذب مليحًا بداية، ثم تعريف العامة بكتب العلماء وغير ذلك.

فهذا كقول ذاك الغني أنه سيجعل المرأة تُعْجَب به لدينه وشخصه وأخلاقه بعد أن يتزوجها.

لسان حالهم يقول: "الغاية تبرر الوسيلة"، والوسيلة هنا كبيرة من الكبائر، وهي لا تحقق تلك الغاية حتى.

سؤال: من كانت فكرته أن ينشر المسائل العقدية – التي أثارتها الفرق الضالة –، وجعلها متاحة ومزوقة للعامة؟

هذا نفسه أسلوب صانعي المحتوى الكفار والفساق في جذب المتابعين والمشاهدين بخلق المشاكل والجدال، فقط تَغيَّر الموضوع، وحاول المصور الظهور مظهر العالم المتمكن الجهبذ المدافع عن دين الله.

لك أيها القارئ أن تقرأ التعليقات تحت مقاطع كلك، وستجد ما يندى له الجبين من سب العلماء والجهل الشديد بهذا العلم الذي توارثناه عن سلفنا الصالح.

فمن الذي تسبب بهذا؟ لم يقم ذاك العامي بالبحث عن تلك المسألة التي كانت محصورة بين أهل العلم – كما يجب أن يكون الأمر – من تلقاء نفسه، بل أغراه ذاك المصور بالعناوين والصور والتزويق.

قوة الأثر الوحيدة هنا هي في تضليل الأمة؛ هذا نوافق عليه، نعم.

كان العامة في زمن السلف يسألون الشيوخ ويستفتونهم ثم يمضون في حياتهم، شتان بين ذاك وهذا[1].

وإليك نقلا لمعنى كلام مليح للشيخ العلامة ربيع المدخلي[2]:

«– جواب الشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي عندما طلب منه أحد الإخوة أن يجعل له محاضرة يكون فيها التصوير بالفيديو!

فقالَ لهُ الشيخُ ربيع : لماذا بالفيديو؟!

قال الأخ : حتَّى ننشر العلم والدعوة بالفيديو والصورة يا شيخ!

- 1- كما كانوا يسألون أئمة عصرنا، وقليل من بقي على ذلك في أيامنا، فقد كثرت الطامات على البرامج التلفازية.

- 2- المصدر: [https://al-maw3da.blogspot.com/2016/02/blog-post_25.html]

فقال له الشيخ ربيع :واللهِ يا ابني إنَّ هذهِ الدَّعوةَ انتشرت بدونِ فِيديو وَ لكنَّها انتشَرت بفَضلَ الله ثمَّ الصحابة ومن تبِعَهُم بإحسانٍ و بإخلاصِ رجَالِها وجِهادِهم في سبيل نُصرَتها......و إنَّنا واللهِ نَرَى أنَّ هذه الدعوةَ قد تقلَّصت منذ أن ظهرت هذِه الفِيديُوهات وهَاته الوَسَايِل. . .) اهـ.»

وله العديد من المواقف في إنكار هذا المنكر، فالحمد لله رب العالمين.

والمقصود هو الدعوة الحق، أما الضلال، فانتشر انتشار النار في الهشيم.

فإن قيل: «تلك المظاهر السيئة والمقاصد الفاسدة إنما تكون من أصحاب الأهواء والرياء، أما نحن فلا نُعَلم الناس إلا ما يحتاجون دون الخوض في المسائل التي لا تصلح للعامة».

قلنا: لا ننكر الثمار التي أثمرتها جهود بعض أهل العلم الذين يرون التصوير، فقد نشروا سنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بقدر معتبر، وعلّموا العامة الكثير وصححوا الكثير وحذروا من البدع الشائعة، إلى غير ذلك من الخير. فهؤلاء خير ممن نشروا الجدال والكلام الذي لا يصلح نشره بين العامة، فاكتفاؤهم بتعليم الناس دينهم بما يعرفون به ربهم ويتعبّدونه كما أمرهم علامة خير على حسن القصد والنية، فالحمد لله رب العالمين.

ولكن هذا لا يبرّر التساهل وارتكاب كبيرة من الكبائر. بكل بساطة، لا مُبَرّر لهذا على الإطلاق، فهذا مثله مثل من يحرق نفسه ليدفئ غيره.

وأول العواقب الوخيمة لمنهجكم هو تهوين غلظة تحريم التصوير.

أترون أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان سينضم إليكم في مواقع التواصل الاجتماعي ومواقع المحتوى المرئي؟

أترون أنه كان سيصور مجالسه وخطبه؟

أترون أنه كان سيقف أمام المصورة لتلتقط له صورة حتى تستعمل على واجهة المرئي مع العنوان؟

لا يقول هذا إلا الحزبيون الذين يدَّعون أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان سيلبس البدلات وربطات العنق لو كان بيننا. نعوذ بالله من الخِذْلان. فاتقوا الله في أنفسكم.

3. شبهة تصوير العديد من العلماء أنفسهم

الجواب:

من يحتج بهذا لا يكون إلا:

1. **من عامة الناس:** فهو مقلد للمحللين، ولسنا بصدد مخاطبة هؤلاء.

2. **من أهل العلم وطلابه:** وإلى هذا خطابنا.

أساس هاته الشبهة هو الاحتجاج بالرجال وأفعال بني آدم الخطّائين غير المعصومين، وضرب الأدلة بعرض الحائط.

ولنا أن نقول أن العديد من العلماء ينكرون التصوير لنشر العلم، فكان ماذا؟

أنأخذ بقول طرف أم الآخر؟

أم نتّقي الله ونتّبِع الأدلة التي دل عليها الكتاب والسنة لحل هذا الخلاف؟

إذ لا حُجّة في شيوع المنكر، فلو كان شيوعه دليلًا على إباحته لما أقيمت الحُجّة على أقوام الرسل.

ولما حارب وأنكر العلماء الربانيون الشرك الذي انتشر في بلادهم عبر القرون الماضية.

قال الله تعالى:

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 170].

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: 104].

- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان: 21].

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: 23].

وعلى هذا المنوال، وكأن المحتج بهاته الشبهة يقول بعد عرض الأدلة عليه: «بل أتبع ما وَجَدْتُ عليه علماءنا»، فنقول لهم: أَوَلَوْ كان علماؤكم لا يفقهون التصوير الضوئي، وعنه لا يتورعون.

4. شيوع التصوير بين العامة

كل الناس تصور الآن، والقول بتحريم التصوير تنفير لهم عنّا وعن دعوتنا.

الجواب:

أولا: شاع التصوير هذا الشيوع بسبب فتوى من أفتى بتحليله دون علم صحيح.

شاع أكثر من الموسيقى، مع أن حرمته أغلظ، وأدلته واضحة وضوح الشمس، فقد لعن رسول الله – صلى الله عليه وسلم المُصَوّرِين، عموما.

ولكن شاء الله أن زَلَّ بعضهم، فجرَّ ذلك من شاء الله.

ثانيا: اِتّق الله.

قال الله تعالى: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِـغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } [الطلاق: 2-3].

لا تُمَيِّـع كبيرة من الكبائر لتُحَقق مصلحة – مزعومة – يصحبها مفاسد أكبر.

قد أنكر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أشد النكير تصاوير ذوات الأرواح، وعلى من؟ على أحب الناس إليه، زوجته عائشة – رضي الله عنها –.

والتصوير الذي أنكره ليس بذاك، فمَا أدراك بالتصوير الذي في زمننا؟

وقد حارب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الكفر والشرك، وأوذي وطُرِد، ولم يُشِر ولو مرة إلى استعمال التصوير لنشر الدعوة، إلى أن توفاه الله، وبقي على هذا كل من بعده.

فإن قيل أن التصوير في عهده لم يكن يصلح [1] لنشر الدعوة، قيل لهم:

بل كان يصلح، وبرهاننا على ذلك وجود المصورين صنعة وتجارة، وكثرة الأصنام وتنوع صورها وأشكالها، ووجود الصور داخل الكعبة.

فإن قيل أن «تلك الصور ليست بمثل هاته التي عندنا، لأنها ليست واقعية».

قيل لهم: هذا شغب شديد البطلان، فمَا الذي جعل الجودة والدقة فرقا يستباح به كبيرة من الكبائر؟ وتفريقكم بنوعية الصور دليل على أنكم تعترفون بأن النظر للمتكلم هو المبتغى، فإن كان ذلك كذلك، فتلك الصور القديمة تحقق ذاك الهدف، ولو لم تكن تتحرك. برهاننا على ذلك انتشار مقاطع فيها صوت شيخ، وصورة ثابتة له طوال المقطع، حتى ولو كانت قديمة جدا ورديئة، وهذا قوي في بيان بطلان احتجاجكم بجودة الصور، فالتعرف على صورة المتكلم حاصل بتلكم الصور اليدوية. والحمد لله رب العالمين.

- 1- بمعنى أنه لم يكن سهلا وسريعا كهذا الذي في عصرنا.

5. شبهة تعليم بعض العبادات الفعلية

بعض العبادات يكون تعليمها بالمرئيات أنفع، كالصلاة والحج.

الجواب:

أربعة عشر قرنا من الزمان، والمسلمون يتعلمون هاته العبادات دون صور، فما الذي تغيّر في دين الله؟

أولا يكفي إرسال شيوخ ومدرّسين ومعلّمين ونشرهم في بقاع الأرض؟

هل التخاذل في هذا الواجب مبرر لارتكاب كبيرة؟

لا والله، ليس ذلك من الضروريات البتة، ولها من الحلول ما عدا التصوير ما يكفي ويزيد.

فلا يصح البتة فتح باب الفتن هذا، فَجُلُّ المُصَوَّرين لا يدركون ما يمكن الناس فعله بالمقاطع المرئية، وتفننهم في استخراج الصور منها واستعمالها في ما لا يرضي الله.

لو كان هذا العلّة الوحيدة في هاته الشبهة، لكان كافيًا لبيان خطورة هذا التساهل، فكيف وقد أثبتنا أنه لا مخصص لحرمة التصوير الغليظة؟ حتى لعب الأطفال[1]، التي بيَّنَّا أنها ليست مستثناة من حرمة التصوير.

ثم حتى وَلَوْ كان التعليم بصور لا رؤوس لها، فلا نرى ذلك أيضا ونكرهه، لأنه كان بمقدور سلفنا الصالح، ولم يبلغنا شيء من ذلك عنهم.

-1- وهذا مما استدل به الإمام الألباني – رحمة الله عليه –، أي أنه لو كانت بنات عائشة لتحقيق الفائدة، فتعليم المسلمين العبادات الفعلية التي لا يحسنون من باب أولى (وهذا اجتهاد منه لا نوافقه عليه، وقد حرص الشيخ على أن لا يُقَلَّدَ ولا يُتَعَصَّبَ له، كما هو منهج السلف الصالح، فهذا مني تطبيق لذاك). ثم حتى ولو كانت بنات عائشة من صور ذوات الأرواح، فلا يصح هذا الاستدلال لأن ذاك الاستثناء – المفترض – يخص الصغار، وقياس فائدة الصغار على فائدة الكبار بعيد، لا سيما وأنه لا مخصص صريح للتصوير للكبار، وحتى الذي زعم البعض أنه مستثنى، فهو ما كان يمتهن فقط.

وهذا في رأيي زلة عالم، لأن العاقل في زمننا هذا يدرك مدى خطورة فتح هذا الباب، فيا ترى، هل كان الألباني ليبقى على فتواه لو رأى المآل الذي صِرنا إليه اليوم؟ الله أعلى وأعلم.

6. شبهة عدم وصول الدعوة لبعض الناس إلا بالتصوير

وهذا في رأيهم يجعله من الواجبات، لأن الدعوة إلى الله تعالى واجبة، وإذا لم نقدر على إيصالها لبعض النّاس إلا بواسطة هاته الوسيلة، فنطبق قاعدة "ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".

الجواب:

هذا خطأ محض.

منذ متى أصبح من **المستحيل** إيصال الدعوة للناس إلا بوسائل الإعلام المرئية؟

هذا بحد ذاته متناقض، لأن وسائل الإعلام تحتاج إلى تجهيز وتثبيت، ولا يكون هذا إلا في المدن والحضر، فإن كان ذلك كذلك، فكيف أصبح وصول دعاة إلى هؤلاء المنقطعين – زعموا – مستحيلًا، ووصول أحدث الأجهزة ممكنًا؟

فإن قيل: «بل نقصد المسلمين القاطنين بالدول الكافرة، فهم بين أهل الضلال والكفر، ومن الصعب محاربة ذلك إن لم نصل إليهم إعلاميا».

قيل لهم: هذا مَثَلُه مَثَل ترك مصاب بالربو في منطقة صناعية متلوثة هوائيًا، ثم رميه من بعيد بالأدوية رجاء شفائه.

العاقل من يأمر ذاك المريض بالمغادرة إلى مكان ذي هواء نقي، ثم يعالجه.

ثم هب لك أنه هناك أناس يقطنون بلدا مسلما، ولكن لهم من الأخطاء ما يحتاج إلى تصويب، ولا يمكن الوصول إليهم إلا إعلاميا – لسبب ما –، فما الذي فرض عليكم التصوير؟

هل وجب التصوير ليصلهم العلم الصحيح؟ أم أن الكتابة والصوت كافيان شافيان لتحقيق الغاية؟

كلنا يعلم أن التصوير يكلف جهدا ومالا ووقتا أكبر، فهنا يتبين لنا أنكم تتكلفون العناء من دون سبب مقنع، جل ما تدعونه هو "أكثر نفعا وتأثيرا". كيف؟ لا ندري. لماذا؟ لأن ذاك كذب محض، فلا زيادة نفع في التصوير، بل فيه ضرر كبير.

دليلنا على ذلك؟ أربعة عشر قرنا من الدعوة إلى الإسلام، من دون تصوير.

ولا حُجّة لكم في ادعاء أن وسائل الإعلام تفرض[1] التصوير عليكم، فهذا كذب، لأنه بإمكانكم اتخاذ وسائل لا تصوير فيها بكل سهولة، وهذا أمر معلوم حتى لكبار السن.

قال الإمام مقبل الوادعي – رحمه الله رحمة واسعة – في رسالته القيمة (**حكم تصوير ذوات الأرواح**):

- 1- وما أضعف وأوهن هذا القول، كيف فرضوا عليك؟ برفض استقبالك إن رفضت التصوير؟ هل يسمي هذا أحد فرضًا؟

«ومن تلكم الفتن التي ابتلي بها المسلمون فتنة الصور، فإنه لا يخلو منها بيت، بل وصلت إلى البدو في الشعاب وشعف الجبال؛ والسبب في هذا تهاون المسلمين بدينهم، ولو كنا لا نقبل بضاعة فيها تصاوير لبادروا بتركها؛ فإن الذي يهمهم أن تمشي بضاعتهم، فقد بلغني أنهم كتبوا على كراتين السمك: مذبوح على الطريقة الإسلامية!

وإنه لقبيح بالمؤلف أن تكون صورته على أوراق الكتاب.»

قلت: وهذا ما زلنا نعايشه إلى يومنا هذا، الكثير من تصدير منتجات بطوابع وعلامات إسلامية — بزعمهم —، وما ذاك إلى لجذب المسلمين.

وما سبق إنما على سبيل الافتراض، لأننا في يومنا هذا، وبسبب شبكة المعلومات، أصبح التحكم في نوع المحتوى، والوصول إليه، والعثور عليه سهلا جدا حتى لأصحاب البادية، وبأحجام وأنواع يصعب حصرها، والتي لا يكفي العمر لاستنفادها.

لم يبق لكم إلا أن تقولوا: «لا يُقْبِلُ الناس على دعوتنا إن لم تكن مصورة، وهذا وجه من وجوه قولنا أنه "لا يمكن الوصول إليهم إلا" بالتصوير».

ولذلك نقول: وهذا منكم صِدْق، لأن الأثر الوحيد الذي يجذبكم نحو استعمال التصوير هو جذب العامة، وزيادة الأعداد، وذيع الصيت.

ومنه، علمنا أن إيصال الدعوة حاصل بدون تصوير، وهذا أمر لا ينكره إلا معاند مكابر.

فإن كان ذلك كذلك، فقد قمتم بالواجب، والذي يكون بقدر استطاعتكم، وفي حدود ما أحله الله. أما ما ترمون إليه من زيادة فيتعدى حدود الله، وليس باستطاعتكم من دون تصوير – تنازلا لكم –، ففعلكم إياه تنطع في الدين وغلو، لأنه تكلف لما لم تؤمروا به.

أُذَكِّر فأقول أن هذا مع تنازلنا لكم بوجود بعض الناس الذين لا يمكن الوصول إليهم دون تصوير، لأننا نعتقد هذا خطأً، فليس هؤلاء بمعزولين، فحتى العجائز الماكثات في بيوتهن لهن صلة بالخارج، وإيصال الدعوة إليهن ممكن دون وسائل الإعلام، وذلك بالدعوة المباشرة، أو بدعوة أهاليهن، أو من يقوم على رعايتهن.

أتغافلتم عن كل هاته الطرق المشروعة وقفزتم على قطار التصوير فقط لأنه جذاب الشكل، ذو ألوان وبريق، وأصوات ممتعة؟

7. زاحموا أهل الباطل في الإنترنت حتى يتبين الحق

الجواب:

هذا قول الإمام ابن عثيمين – رحمه الله رحمة واسعة –، وما أرى الناس إلا توسعت في هذا توسعا غير محمود يصح أن يقال فيه: «كلمة حق أريد بها باطل»، فالبعض يعامله وكأنه نص شرعي محكم، فتجدهم يدخلون أي جحر ويحتجون بهذا القول.

والإنصاف أن هذا قول حسن، ولكن أخذه عمومًا باطل، بل وجب التفصيل فيه في حالة التطبيق.

وفي ما يلي سنفصل في المزاحمة بالتصوير وفي مواقع المحتوى المرئي ومواقع التواصل الاجتماعي وغير ذلك.

فمما يجب مراعاته:

1. ألّا تكون المزاحمة في ذاتها من الحرام، أو تؤدي إلى الحرام يقينا أو ظنا راجحا. وفي حالة التصوير، فذلك يعني أن لا يشارك المرء في التصوير والظهور ويرفض المشاركة والحضور. وحتى لو منعهم من تصويره وحضر دون أن يظهر، فـ:
    1. إن كان حضوره سببا في تصوير الآخرين، أي أنه إن لم يُقم الاجتماع إلا به.
    2. لو أقيم الاجتماع وحصل التصوير ولو لم يحضر، فواجب عليه أن لا يحضر لما في ذلك من إعانة على المنكر ومخالطة مجلس سوء.

أما أن يقال أنه «لو لم أحضر لفاتت علي فرصة تعليم الناس، أو لو رفضت لعزلوني واستبدلوني بمن هو أشر مني»، فليس هذا بمبرر لأن:

1. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إلا أن تخشى على نفسك، فاتق الله ما استطعت.
2. نشر العلم من فضل الله، يؤتيه من يشاء، ويتقبله ممن يشاء، وما عند الله لا ينال إلا بما يرضيه، وليس التصوير من ذلك.
3. هذا من عدم التوكل على الله وسوء الظن به. ومن يتق الله يجعل له مخرجًا، ويرزقه من حيث لا يحتسب. فعليك بتقوى الله، وسيرزقك من فضله، كما رزق الإمامين الألباني والوادعي، فلتكن لنا أسوة فيهما.

2. الموازنة بين المصالح والمفاسد:

لا مصلحة تُذكر بزيادة الصورة على الكتابة والصوت، ولكن هب لك أن ما يدعونه من المصالح له قيمة تُذكر:

1. زيادة التوثيق — زعموا —.
2. زيادة النفع والتأثير — زعموا —.
3. جذب أعداد أكبر من الناس.

ومن المفاسد:

1. ارتكاب كبيرة من الكبائر، ألا وهي التصوير.

2. التعرض للفتن، والكلام عنها يصلح أن يكون مجلدات، فنكتفي هنا بالإيماء لأولي الألباب.

3. الإصابة بالرياء، لأن انتشار صورة المرء يؤدي إلى الشهرة المفرطة، ويصبح مِمن يشار إليهم بالبنان من أناس لم يلتق بهم في الواقع إطلاقًا، وفي هذا من الخطر ما لا ينكره إلا من لا قلب له يخشى.

فإن قيل: «نحن لا نطلب الشهرة، بل تحصل لنا ونحن في خِضَمّ نشر العلم».

قلنا: حتى ولو لم تقصد، فقد اتخذت أسبابها، التي لا ضرورة لها، ومحرمة أشد التحريم.

التصوير من أقوى أسباب الشهرة، فكم من مجهول نُشرت صورته عبر الشبكة فأصبح حديث الناس عبر العالم. ومع هذا تقول وتحتج بعدم قصد الشهرة.

المجاهيل أصبحوا مشاهير بسبب التصوير، فكيف بمن تصدَّر لنشر العلم والفتوى؟ ألا يمكنك أن ترى الفتنة في هذا؟

4. اعتياد الناس على المعصية والدين معا، فيأتلفون المعاصي ويستخفون بالشرع، **مع القدرة على تجنب ذلك.**

5. تعريض طلاب العلم للفتن.

6. تعريض النفس للإهانة والاستهزاء، وذلك بتوفير صور متعددة وكثيرة للفساق والفجار، يعدِّلونها كيف شاؤوا.

7. الوجود في مواقع الضلال والمحتويات الفاسدة والفسوق والفجور سبب مباشر لتعريض عامة الناس – القاصدة تعلم الإسلام – للضلال والفتن، فَلَسْتُمْ من يتحكم في المحتوى المعروض لهم، بل يتحكم في ذلك الكفار عن طريق برامجهم. وجُلُّ الدعاة اليوم يعتمدون على هاته المواقع لأن العامة حاضرة فيها بكثرة.

ولكن لماذا يكثر وجود العامة في تلكم المواقع؟

لأن فيها من المغرِيات والشهوات ما لا يمكنهم مقاومته، ومعظمهم مدمن عليه وعلى استهلاكه.

فماذا كان حَلُّكُم؟ الدخول معهم في جحر الضب.

بدل نهيهم وتنفيرهم عن مثل تلك المواقع التي بنيت أساسًا للترفيه وترويج أفكار الكفار، شاركتموهم في زيادة قوتها وشعبيتها وشيوعها.

من المؤسف أن يكون بعض الكفار يمنعون ذويهم وأطفالهم من استعمال تلك المواقع لخطورتها على الأذهان، ثم يأتي دعاة الإسلام لجر الناس إليها.

أصبح الآن حتى من لا يستعملها صعب عليه أن يجد تلك المواد إلا على مواقع يندى الجبين للمحتوى الذي تعرضه.

8. تعريض العامة لمحتوى أصحاب الأهواء والبدع والفرق الضالة.

9. منح متبعي الهوى والرويبضات العذر للتنصب للدعوة على تلك المواقع والتكلم في دين الله عن جهل مركَّب.

كل ما سبق متحقق في مواقع التواصل الاجتماعي والمحتوى المرئي، ولا أظن العاقل يرجح المصالح — المزعومة — على المفاسد، فالمصالح واهية، وحتى لو تنزلنا، فلن تعدو أن تكون واجبات كفائية.

أمّا المفاسد، فكبائر ومفسدات للمسلمين ومُجْلِبات للفساد والفتن والضلال.

فإن قيل: «بل أضف لذلك دَفْعَنَا مفسدة ترك الناس في وَسَط ذلك الفجور والفسق، فلذلك دخلنا ونشرنا ما يذكرهم بدينهم».

قيل لهم: دَخَلَ مِن الناس البَرّ والفاجر، وهذا تفصيل وجب ذكره.

الفاجر معلوم حاله، فسواء دخلت معه أو لم تدخل، بل نصحه في الداخل أسوأ إذا رآك معه في وَسَط العفن والنجس.

أما البَرّ، فمَا دخل إلا لأنه يظن أن تصوير ذوات الأرواح أمر مباح، وهذا فسادٌ تَسَبَّبَ فيه تكلمكم في التصوير الضوئي دون علم، فهل تُسْتَحَلُّ الكبائر وتُسْتَصْغَر الفتن لتدارك خطئكم؟

كلّا، بل وجب التراجع عن الخطأ والعمل على تصليح الضرر، وسيستغرق هذا وقتا لأن المفسدة عظيمة وشرها مستطير، وزاد النار لهيبا مزيدكم في التساهل بهاته الكبيرة.

ومما يزيد من الحسرة والحزن على مآل الدعوة الإسلامية أن يكون نشر الدعوة دون تصوير يحقق كل مصلحة، **وليس فيه ولو مفسدة واحدة.**

لماذا؟ لأن في ذلك اتباعًا لمنهج السلف الصالح، وعدم الابتداع في الدين. نعم، استخدام التصوير في نشر العلم بدعة شديدة المنكر.

أضف لذلك التالي:

وجودُكم في مواقع الفساد يستعمله الكثير حُجَّةً وعذرًا لبقائهم هناك – لا سيما الأطفال – بينما هم يستهلكون محتويات الفجور والفسق لسهولة وسرعة الانتقال من هذا إلى ذاك.

بريق الأمل

ولكن، والحمد لله، يعجبني أمر المشايخ والعلماء الذين يكتفون بإنشاء مواقع خاصة بهم، يتحكمون فيها كيف شاؤوا.

وقد تطورت الوسائل ولدينا من الشباب المختصين في البرمجة والآليات والبرامج ما يمكننا من الاستغناء عن مواقع الفجور.

وهذا الضرب من المزاحمة هو ما يصلح تفسيرًا وتطبيقًا لقول الإمام ابن عثيمين – رحمه الله وغفر له –،

تطبيقٌ يجعل للمسلمين شأنًا ومكانةً خاصةً بهم على شبكة المعلومات.

تطبيقٌ يحقق أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – في مخالفة الكفار وعدم التشبه بهم.

تطبيقٌ ليس فيه ارتكاب الكبائر.

تطبيقٌ لا ابتداع فيه.

تطبيقٌ يُصَفّي متبعي الهوى ومحبي الظهور.

تطبيقٌ على نهج الكتاب، والسنة، والسلف الصالح.